

# « نقد الفكر الديني »

بقلم عبد الحليم حسن

ويحال الى المحاكمة لمعاقبته !! ( صوت العروبة - ٣١ ديسمبر ١٩٦٩ ) . وهكذا فتح في عصرنا باب كريمة من ابواب العصور الوسطى .

ودافع الكثيرون عن حرية الرأي وحرية الفكر والحاجة الى المناقشة والمواجهة الفكرية وليس الارهاب ، واصدرت بعض الهيئات البيانات التي تستنكر مصادرة الكتاب وقرار ابعاده مؤلفه . وقالت الآداب مثلا ان محاولة مصادرة الكتاب « دليل على ان هذه الديمقراطية التي يتبجح بها لبنان هي ديمقراطية زائفة ودعوى باطلة » . وقيل كلام كثير عن المخطط الاحادي للنيل من الاسلام ، وان الاستعمار وراء هذه الحملة . وقال كثير من المعلقين المتزنين « ان فتح اية معركة تضر بصالح المعركة ضد العدو ، بتعريضها مثلا وحدة الفكر الشعبي للتفسخ ، ليست الان معركة ثورية ، بل العكس . وليست معركة تقديمية بل العكس » . و« ان شن المعركة ، باسم الماركسية ، ضد الدين ، يشكل سلاحا خطيرا ضد فكرة الثورة والثورية ، في ايدي الذين يستثمرون الدين كجماعة الاخوان المسلمين ، وينسقون سياساتهم على حسب ما تريده السياسة الاميركية في هذه المنطقة » ( راجع الحوادث ٢٦ ديسمبر ١٩٦٩ ) وتبنت الآداب الى ان هذه « المعركة » باسم الثورية والتي تؤكد على الحركة الفدائية وحدها باعتبارها القوى الثورية الوحيدة في المنطقة محاولة « لثقب » الحركة الثورية العربية وتفتيتها .

وقد يبدو ان الهدف البعيد من هذه المعركة التي اثارها « النهار » ثم تبنتها ودافعت عنها هو الوقيعة بين العرب والاتحاد السوفياتي ، في وقت ابتدأت تنحسر الدعاية الطويلة الكثيفة المليئة بالخرافات والافتراءات التي حاكنتها الرجعية العربية ضد « الاشتراكية العلمية » وضد الاتحاد السوفياتي بالذات صديق العرب الوفي ، ابتدأت هذه الدعاية تنحسر ويتضح زيفها في اوساط الجماهير بفضل الموقف « العملي الصلب والمجيد الذي يقفه الاتحاد السوفياتي معنا ضد عدونا وفي معركتنا الصيرية . فانت هذه المعركة لتستغل عواطف الجماهير الدينية لاثارة هذه الوقيعة . . الا ان الكثيرين من المعلقين تنبهوا الى خطر افتعال هذه المعركة الجانبية مع الماركسية ، واخذوا يشككون في المخطط الامبريالي وراء هذه المعركة المفتعلة ، ولاحظ بعضهم ان هؤلاء وصلوا حبال الود بينهم وبين الماركسية حديثا وبالتحديد بعد يونيه ١٩٦٧ ثم اخذوا بعد ذلك يشنون الحرب ضد الفكر الديني . . وانير كلام كثير حول صادق العظم نفسه وربط بين مواقفه في الهجوم والتهم على العربية المتحدة وبين تبني « النهار » له وتحمسها لاثارة هذه المعركة وجعله بطلا شهيدا .

\*\*\*

ولكن ... ان كل هذه التعليقات والضجة التي اثيرت حول الكتاب ، وما صاحبها من تاييد وهجوم محوم وشكوك واتهامات ، ينبغي تجنبها جانبا لانها تتصل برد الفعل السياسي والديني للكتاب وليس الكتاب نفسه ، او بالاحرى تتصل بالمعركة التي اثارها « النهار » واستقلت فيها الكتاب وصاحب الكتاب كمبرر وستار . وفي مثل هذا المناخ ، مناخ الشكوك واثارة الريب ، ما اسهل توجيه الاتهامات ، ويضع

قبل ان تطل السبعينات مباشرة قامت ضجة عنيفة في بيروت ، صحافتها ونواديها الثقافية ، حول كتاب ، وما زالت هذه الضجة مستمرة . ومن هنا فلا يمكن الحديث عن هذا الكتاب دون الحديث عن رد الفعل الواسع الذي احدثه او اريد له ان يحدثه من الحقيقة ، خاصة وان الكتب التي احدثت مثل هذا الدوي في تاريخنا العربي الحديث كتب قليلة . وقد ازدادت الاثارة بعد الضجة التي اثيرت حول الكتاب عندما صادرت السلطات اللبنانية الكتاب واصدرت امرا بابعاده مؤلفه السوري الاصل من بيروت « بتهمته اثارة الثورات الطائفية » .

والكتاب هو « نقد الفكر الديني » لمؤلفه الدكتور صادق جلال العظم ، وقد صدر عن دار الطليعة في بيروت . وفور طبع الكتاب ، وربما قبل تداوله في الاسواق ، قدمت جريدة « النهار » في ملحقها الاسبوعي الصادر في ٧ ديسمبر - كانون اول ١٩٦٩ الكتاب ومؤلفه بشكل مثير ، وسلطت عليه الاضواء مع التركيز على نقاط استفزاز معينة واربازها . وجعلت عنوانا عريضا للموضوع « الدمشقي الكافر - خارج على عائلته المسلمة الايستوقراطية وواحد من العصاة الشياطينيين الحقيقيين - صادق العظم : مسلم النصف الثاني من القرن العشرين ، امن الحتم عليه الاعتقاد بالجن والملائكة وهاروت وياجوج وماجوج ؟ » . وهكذا قدمت « النهار » الكتاب ومؤلفه على انه هجوم من مفكر « ماركسي » على الدين الاسلامي .

و« النهار » كما يعرف القراء العرب ، ولا شك ، جريدة موضع ريب اكيد من حيث الجهات « الاجنبية الغربية » ، التي تمولها ، وعداؤها للجمهورية العربية المتحدة ومواقفها من قضايا الثورة العربية معروفة ومكشوفة ، بالرغم مما تتمتع به - حقيقة - من ذكاء شديد وفن صحفي مثير جعلها اوسع الصحف اليومية البيروتية توزيعا .

وهنا كانت مبادرة هذه الجريدة للتلهيل للكتاب محل شك وتساؤل المعلقين في الصحف البيروتية بل ومحل الادانة . وقد ركزت على هذه النقطة مثلا مجلة الآداب ( عدد يناير ١٩٧٠ ) ومجلة « الحوادث » ( راجع امين الاور في العدد ٢٦ ديسمبر ١٩٦٩ والعدد ٩ يناير ١٩٧٠ ) وقيل ، ان الخطر من نشر الكتاب لم يكن هو لبس المسألة . بل الخطر من شن المعركة في الصحيفة ( النهار ) هو اللب والجهور . وهنا افلحت « النهار » بذكاء شديد في اثارة معركة ، تبدو آتيا جدل حول افكار الكتاب ولكنها جرت حتما هجوما على الماركسية وبالتالي الهجوم على الاتحاد السوفياتي . . فرائنا عناوين ضخمة في الصحافة البيروتية مثل انها « حرية الكفر وليست حرية الفكر » و« عوض ان يحرد الشيوعيون الشعور الديني عند المسلم فيحرقوا الشعور الماركسي المسحوق تحت عبء المعتقدات المتحجرة » ( صوت العروبة عدد ٢٤ ديسمبر ١٩٦٩ ) وارسلت البرقيات الى الصحف تطالب باتخاذ كافة الاجراءات للوقوف امام موجة الالحد ، وطالبت بعض الصحف بسن قانون يمنع نشر الالحد وذهب بعضها الى حد تحديد العقوبة « سجن الكاتب خمس سنوات في المرة الاولى ، وعشر سنوات اذا كرر الامر مرة ثانية ، وخمس عشرة سنة اذا عاود ثالثة . . واي متكلم يدعو للالحد في مدرسة او جامعة يطرد من جامعتة او مدرسته .

القائل بأن الأيدولوجية الغيبية وما يلتف حولها من قيم وعادات وتقاليد هي حصيلة للروح العربية الاصلية الخالصة ( ص ١٣ ) وقد قال ايضا بأن الأيدولوجية الدينية هي السلاح النظري الاساسي والصريح بيد الرجعية العربية في حربها ومناوراتها ضد الفؤى الثورية وكذلك قال « ان الانظمة التقدمية العربية وجدت في الدين عكازا تنكئ عليه في تهدئة الجماهير العربية وفي تغطية المعجز والفتل» ووجدت فيه « وسيلة ديماغوجية فعالة في تعزية الجماهير وتسكينها » الخ ... ( ص ٩ ) .

\*\*\*

هذه هي الافكار العامة التي اوردها الكاتب في مقدمة كتابه وحدد بها منطلقة ، وبذا جعل الكاتب من مقدمته هجوما على حركة التحرر العربي ... ونحب ان نحدد الاطار العام لنقدته لحركة التحرر العربي وسياقه ، فليست المشكلة هي توجيه النقد لحركة التحرر والحركة الثورية فالنقد مطلوب دائما وهو علامة صحة وانما هي سياقه وهدف توجيهه وطريقة توجيهه وعن أي ارضية يصدر ... وسأستبعد مقدما الربط بين المؤلف والمجموعة التي رفعت شعار « اليسارية » فجأة وتتجمع حول مجلة « مواقف » او المجموعة التي تلفت حصول مجلة « القضايا المعاصرة » الفصلية التي تصدر عن دار « النهار » ... او انجراف الكاتب في موجة النقد الماسوشي للذات الذي ساد بعد الهزيمة والذي ادى ويؤدي باصحابه الى النقد الشامل الصيبياني والمنتشج غير المسؤول ( للمؤلف كتاب « النقد الذاتي بعد الهزيمة » وقد صدر عام ١٩٦٨ ) . سنستبعد هذا كله ونجمل « نقده لحركة التحرر العربي في مقدمته لنقد الفكر الديني » - ولن يفوت على القارئ دلالة هذا التشديد على نقد حركة التحرر في مقدمته لموضوعه - نجمل هذا النقد في نقطتين :

اولا : ينهم حركة التحرر العربي بانها تهمل نقد البنى الفوقية بوجه عام والبناء الديني بوجه خاص وان جهدها الثقافي تحول الى صيانة الأيدولوجية الغيبية بمؤسساتها المتخلفة والتعصب لها باعتبارها حصيلة الروح العربية الاصلية .

وهذا الحكم على هذا النحو حكم عام وغير صحيح اولا ، فهي لم تجعل ذلك « جهدها الثقافي » على الاطلاق ، اما استناده الى حديثه عن معجزة ظهور العذراء ، وهو حديث عصبي استخدم فيه تعبير الهستيريا الدينية والهوس الديني اكثر من خمس مرات في صفحة واحدة ( ص ١٥٤ ) فلا يمكن ان يكون مستندا ودليلا الا اذا كنا نريد التشكيك والتهجم ونبتعد عن دراسة مثل هذه الامور دراسة اجتماعية ونفسية . والقضية الاهم هي ان المؤلف يسوى بين مواقف الدول العربية الرجعية والتقدمية في هذه الناحية ، بين الذين يستخدمون الدين كستار لضرب التقدم في المنطقة العربية والذين يكشفون عن الجانب التقدمي فيه لمساعدة حركة التحرر العربية ، بين الذين يتخذون « الفكر الديني » ستارا لمعاداة الثورة والذين يكشفون عن الجوانب التي يمكن ان تلعب دورا في حركة التقدم في هذه المرحلة وفي محاربة الاستغلال مثل فكرة الفاء الملكية الخاصة في هذا الجانب من التراث . وهذا الموقف الذي اتخذه المؤلف لا يمكن ان يخدم حركة التحرر في مرحلتها الراهنة وان الامر يتوقف على تشخيص الحالة الموضوعية والظروف التاريخية ، والذين يففلون عن ذلك الفهم الاولي ويروحون يهيمون وراء ما يحسونه مواقف مبدئية مطلقة وحاسمة مصابون بمرض معروف شخصه لينين بدقة متناهية. وهذا المرض اسمه « مرض اليسارية الطفولي » ، والمصابون بهذا المرض يقوضون نفوذهم بين الجماهير ويساعدون دائما اعداء رسالتهم ويخونون مهمتهم التي تتطلب منهم « ان يكونوا قادرين على اقتناع الفئات المتأخرة ، قادرين على العمل بينها ، لا ان يضعوا بينهم وبينها سياجا من الشعارات الصيبيانية اليسارية المخترعة » . ( ص ٤٩ من مرض اليسارية الطفولي في الشيوعية - مختارات لينين ج ٤ - الطبعة العربية ) .

- التهمة - على الصفحة - ٨٩ -

التقييم الحقيقي للكتاب ولجهده مؤلفه . وهنا علينا ان ننظر الى الكتاب نفسه ومن داخله اولا وقيل كل شيء ، باعتباره جهد مفكر عربي يريد ان يكون مخلصا . وانه نقد اراد به صاحبه تبديد وهم وانه يسلك حقيقة وعن اقتناع أكيد سلوك واحد من اصحاب « القناعات الاشتراكية الثورية » في كل ما كتبه في كتابه ، وانه اراد خدمة الحركة الثورية العربية ، وانه اراد ان يكون مفكرا ثوريا يتصدى للقيام بدوره المشروع والمطلوب في « النقد » .. علينا ان ننظر في الكتاب من هذه الزاوية وحدها وفي هذا الاطار ( وان نستبعد علاقة المؤلف بالنهار او النقاء فكره في هذا الكتاب او غير هذا الكتاب مع اهداف النهار او غير النهار ) ، وان نناقشه بهدوء وفي ضوء ما اتواه مؤلفه وما قصد اليه ، وان نحاسبه بهذا المعيار وحده حتى يمكن تقييم عمله اولا وربطه بسياقه التاريخي والمرحلي .

\*\*\*

والفكرة التي ينطلق منها المؤلف هي الدعوة التي دعا اليها الكثيرون - وقد اشار المؤلف الى بعضهم - وهي ضرورة نقد البنيان الفكري التقليدي للشعب العربي حتى لا يكون ذلك امرا معطلا للنمو الاقتصادي نقدا علمانيا صارما . ويزعم المؤلف انه برغم اعتراف الجميع باهمية نقد البنى الفوقية في حياة المجتمع العربي ( مثل الفكر والثقافة والتشريع والأيدولوجية الغيبية الضمنية ) الا ان هذا النقد انحصر في حدود التعميمات الواسعة وترديد بعض الكليشيات المستهلكة حول التنديد « بالذهنية الغيبية الكاليكية » ، و« الايمان بالقيبيات والاساطير والحلول المجانبية » والدعوة الى الاخذ بالاسلوب العلمي والمنهج العقلاني في معالجة الامور وبناء الدولة العصرية ، ولم يقم احد من هؤلاء المنددين والناشدين « بنقد الذهنية الغيبية التي يرفضها ، على اساس من المراجعة العقلانية العلمية المباشرة لنماذج حيه وملموسة من انتاجها ومزاعمها وتفسيراتها للاحداث . وارجو الاكون مجانبيا للصواب كليا ان قلت بانني حاولت في هذه الابحاث ان امارس هذا النوع الملموس من النقد للفكر الديني المعروف حاليا والعروض على اوساط الرأي العام العربي » ( ص ٨ ) .

فالمؤلف اذن يريد ان يفعل ما لم يفعله التقدميون العرب الذين تكصوا عن مهمتهم نحو النقد العلمي لهذه البنى الفوقية ، ويتهم حركة التحرر العربي بانها لم تقم بواجبها نحو التصدي الفكري لهذا السلاح النظري بيد « الرجعية العربية » وانها وقفت موقفا سلبييا محافظا من عملية نقد الارث الفكري والاجتماعي العربي ومراجعة ابيته العليا بما يتناسب مع التغيرات المادية الكبيرة التي طرأت على تركيب المجتمع التحتي ( ص ١٠ ) بل انه ينهم حركة التحرر العربي بنبيها البيان الثقافي الفوقي بما فيه من عادات ذهنية متخلفة « واعتبرت كل ذلك جدريا بالاحترام والاجلال واحاطته بهالة من القدسية مما وضعه خارج نطاق النقد العلمي والتحليل التاريخي للظواهر » ( ص ١٠ ) ويتابع اتهامه لحركة التحرر العربية بانها لم تبذل جهدا فكريا وثقافيا موازيا للجهود الاقتصادية والاجتماعية كي تجعل في تحقيق التجانس بين الفكر والمصاحبة التي يمثلها بل يقول انها تضع كافة العرافيل والموانع الممكنة في وجه حدوث اية تغيرات موازية في ضمير الانسان العربي ، وان جهدها الثقافي تحول الى صيانة الأيدولوجية الغيبية بمؤسساتها المتخلفة وثقافتها النابعة من العصور الوسطى تحت ستار حماية تقاليد الشعب وقيمه وفنه ودينه واخلاقه ... ثم يقول ان حركة التحرر قامت بتجريد العلاقة الاستعمارية في حياة الوطن العربي بحيث بدأ الاستعمار وكأنه الحقيقة الوحيدة المباشرة المائلة في مجرى الاحداث في المنطقة والحركة لها و « بالفتع عملية التجريد هذه في تبسيطها للواقع التاريخي المعقد مما جعل الاستعمار ( واحيانا الصهيونية العالية ) يبدو وكأنه القوة الوحيدة المتحكمة ، بصورة ، مباشرة وغير مباشرة ، بحركة المجتمع العربي وبالبيئة التي تثير ردود فعله » ( ص ١٣ ) والوجه الاخر لعملية تجريد العلاقة الاستعمارية على هذا النحو هو التعصب للوهم المثالي

## نقد الفكر الديني

— تمة المنشور على الصفحة ١٢ —

ويرتبط بهذه النقطة عدم تدبر الكاتب لما يقال عن الاصاله وخلطه بين الدين يستخدمون هذا المفهوم لصيانة العناصر المتخلفة في التراث وبين الذين يجهدون في توضيح هذا التشويه للتراث وابرار الجوانب التقدمية فيه ... وقد تناسى المؤلف ذلك كله وسوى بين الموقفين مما جعله يبدو كالذي ينقد حركة التحرر من خارجها ولم يفهمها وجعلته يقف موقف المشككين فيها وبالتالي جعل نفسه يقف مع اعدائها .

وكذلك يرتبط بهذه النقطة الموقف الخاطيء الذي وقفه في الكتاب كله عندما شدد على اثاره التناقض بين الدين والعلم الحديث باعتباره التناقض الرئيسي في هذه المرحلة . ففي مجتمع يناضل الاستعمار وفي حالة تحرر وطني ومحاوله للتخلص من الاستغلال الاجتماعي اذا كانت هناك محاولات لان يرتدي هذا الجانب من البنى الفوقية للتراث العربي ثوب « العقلانية » عن طريق التأويل غير المؤذي ثم يتقبل ذلك ، فليس من المفيد اذن بل وليس علميا ايضا ، التشديد على ان هناك تناقضا وان هذا وحده هو التناقض الرئيسي ، اي التناقض بين الدين والعلم . وانما التناقض الرئيسي في هذه الحالة انما هو التناقض في عناصر البناء الفوقي التي تستخدم لتبرير الاستغلال وبين العناصر التي تقف ضد الاستغلال . ومحاوله الفكر الذي يتصدى لنقد هذا البناء الفوقي من التراث انما تكون في بيان وكشف هذا التناقض ومهاجمة العناصر التي تبرر الاستغلال وان تخفت تحت أي ستار « مقدس » ... ولكن المؤلف لم يفعل شيئا من هذا على الاطلاق — في كل الكتاب — وانما راح يشدد على التناقض بين العلم والدين وينتقي امورا ليست بذات شان في مسائل الحياة الواقعية والعملية بل انها تنقض باستمرار او تناسي ( والناسي-احيانا نوع من الرغبة في اللوجود ) عند السلوك العملي ومقتضياته وتتحول هذه الامور السى منطقة التفضيل الشخصي « ولا تتدخل في مواجهة الواقع الا بمعارضة ضميضة واهنة » وهي فيما يرى البعض بالرغم من افتقارها او بسبب افتقارها الى الموضوعية تكون « عوامل رئيسية من عوامل الانسجام والتلاحم الاجتماعي » ... وهذا النقد العام لموقف الكاتب في هذه النقطة ينصب على معظم ما عمله المؤلف .

ثانيا : اتهم الكاتب حركة التحرر العربي بانها تقوم بعملية تجريد للاستعمار ( وللصهيونية العالمية ) بحيث جعلته يبدو كانه القوة الوحيدة المتحركة بحركة المجتمع .

ولا شك ان هذا النقد يبدو صحيحا ومعقولا لاول وهلة ، وقد سبق للكاتب ان كرر فكرة مشابهة في « النقد الذاتي بعد الهزيمة » ( ص ٣٨ - ٤١ ) ، والذي يجعل هذا الكلام يبدو معقولا ان المبالغة والتضخيم في جانب واحد واغفال الجوانب الاخرى قضية خاطئة وغير صحيحة بشكل عام ، وان التنصل من المسؤولية واسقاطها كلية على سبب واحد خارجي دفاعا عن انفسنا قضية خاطئة وغير صحيحة بشكل عام . ولكن ليس معنى هذا ان تأتي وتقول — في مرحلة التحرر الوطني والنضال ضد الاستعمار — ان حركة التحرر العربي تقوم بعملية « تجريد » للاستعمار والصهيونية العالمية « ومبالغة » في تأثيرهما على حركة المجتمع العربي ... فهل المطلوب منها « التهوين » من شان الاستعمار ؟ وهل وعينا بعمق خطر الاستعمار حتى يطلب منا عدم المبالغة في امره والتعقل في تقدير دوره ؟ انها لا تحاول ان تقوم بعملية « تجريد » وانما عملية « تجسيم » للحكومات التي ما زالت لم تدرك خطره ولتحشد شعوب المنطقة للنضال ضده . ان الاتهام بانها تقوم بهذا « التجريد والمبالغة » للاستعمار يلتقي في النهاية بما يقوله المحللون « التجريد والمبالغة » للاستعمار يلتقي في النهاية بما يقوله المحللون

عن الاستعمار والامبريالية العالمية ، وينهمونها بانها مصابة بمرض « فوبيا الاستعمار » وانها مجرد المسالة وتتهم دائما ان هناك « شيطانا وراء كل شيء » اسمه الاستعمار ، وقد كانوا منهمكين في تشخيص هذا المرض واجراء الدراسات اللغوية والنفسية التي تدلل على تفشي هذا المرض بين الشعوب التي تناضل من اجل التحرر !! وخطر هذه الفكرة وخطؤها واضح في هذه المرحلة لانها تجعلنا نرخي من تشديدنا على التشديد « بالاستعمار » وبالتالي مقاومته ، واهرى بنا اذن ان ننصرف الى شؤوننا الداخلية وان نرفع مستوى المعيشة كما كانوا ينصحوننا في « انسانية واشفاق » ... لا تبالفوا وتجردوا حتى لا تصابوا بهذه الفوبيا وتجردوا هذا الكيان الذي جردتموه حتى استوى شيطانا تجدونه وراء كل خطأ وتأخر انتم مصابون به « ذاتيا » . ان حركة التحرر لا « تجرد » الاستعمار والا ما استطاعت ان تناضله لان الناس يناضلون شيئا واقعا يرون تأثيره باعينهم وتشهد عليه دماؤهم وارضهم . ولسنا في حاجة الى الحديث عن مواقف حركة التحرر من الاستعمار في المنطقة وكذلك مواقف الرجعية الصامتة عن الاشارة السى الاستعمار وقواعده في ارضها ... ان موقف حركة التحرر من الاستعمار ليس تجريدا ومبالغة صنعتها لانفسها .

والسؤال هو : آرايت اذن مع من يلتقي هذا الكلام ومن يخدم ؟ انه يلتقي مع اليمين تماما ويخدمه ويدعم قواه . ولست اعتقد ان المؤلف اراد هذا على الاطلاق او قصده او انتواه ، فهذا لم يخطر في بالي قط ، ولكن ما حيلتي وقد اوضح ذلك مجرد تحليلنا لنقده ؟ ان تحليل نقده هو الذي ادى الى هذا . ومع هذا فانا احترم واقدّر في المؤلف « رغبته » في النقد المسؤول وهدفه المخلص في كل ما كتبه .

\*\*\*

هذا من الناحية العامة ، وكما اتضح لنا من مقدمة الكتاب ونقده اليساري الطفولي لحركة التحرر العربي وموقفها من الفكر الديني . وكان من المفروض ان تتصل مقدمة الكتاب بما يليها من فصول بحيث تطور فصول الكتاب اللاحقة الافكار التي طرحت في المقدمة وتبسطها وتشرحها وتدلل عليها . فالمؤلف مثلا تحدث في المقدمة عن ان الفكر الديني يلعب دور السلاح « النظري » عن طريق تزييف الواقع وتزوير الوعي بحقائقه وان عملية التزييف هذه تعمل في صالح مجموعة مصالح طبقية ضيقة ومسيطره وتحدث عن انماط اربعة من التزييف ، ولكنه لم يدرس في الحقيقة الا نوعا واحدا منها هو ما سماه تزييف حقيقة العلاقة بين الدين والعلم الحديث . وكان على الكاتب اذا اراد فعلا نقد هذا النوع من الفكر ان يدرس هذه الانماط من التزييف التي ذكرها دراسة متأنية ، والا ظل ما يقوله كلاما عاما غير مقنع ، وكان عليه ان يهتم اساسا بدراسة عملية التزييف هذه وتوضيح ارتباطها بالاستغلال الاجتماعي والسياسي . ولكن المؤلف لم يلتزم شيئا من ذلك في كتابه ، ولا بأس عليه فيما عمل ، فليكتب في مقدمته ما شاء وليتناول في فصول كتابه ما يشاء ايضا . ولعل السبب في ذلك ان الكتاب عبارة عن جملة دراسات سبق للمؤلف ان نشرها كلها ، او الجزء الاكبر منها ، في المجلات العربية في بيروت مشمل مجلة « الثقافة العربية » ، ومجلة « حوار » وملحق « النهار » ، ومجلة « دراسات عربية » . وليس في الكتاب اذن شيء لم يسبق نشره — فيما يبدو — غير المقدمة والفصل الاخير الذي عنوانه « مدخل الى التصور العلمي — المادي لكون وتطوره » ، واما الفصول الاربعة الاخرى فهي عن « الثقافة العلمية وبؤس الفكر الديني » ، و « مأساة ابلوس » ، و « معجزة ظهور العذراء وتصفية آثار العدوان » ، و « التزييف في الفكر المسيحي الغربي المعاصر » . ودراسته عن مأساة ابلوس التي سبق ان قرأناها في « حوار » دراسة طريفة حقا ولعلها ان تكون امتع ما في الكتاب ، فهو قد اراد دراسة هذه الشخصية باعتبارها شخصية ميثولوجية ابدعتها « ملكة الانسان الخرافية » وطورتها وضخمتها بخيال خصب . ووجه الطرافة في هذه الدراسة ان « التفكير الميثولوجي دوما قسوة

صدر حديثا :

## تحديث العقل العربي

للدكتور حسن صعب

دراسة علمية عن الثورة الحديثة الشاملة ،  
والتغييرات المنهجية اللازمة لتحقيق التقدم العربي ،  
ودعوة لاعطاء الاولوية لتحديث العقل العربي وتحويله  
من صناعة الكلمات الى صناعة الاشياء .

## المعجم الذهبي

فارسي - عربي

اضخم قاموس فارسي - عربي ظهر حتى الان ،  
تأليف الدكتور محمد التونجي

## المورد

قاموس انكليزي - عربي

طبعة ثالثة تشتمل على اضافات كثيرة ولوحات ملونة

تأليف الاستاذ منير البعلبكي

## الناجحون

مجموعة كتب للفتيان والفتيات ، تعرض حياة  
نخبة من ابطال العالم في الشرق والغرب ، في الحرب  
والسلم ، رجالا ونساء ، قديما وحديثا .  
ظهر منها حتى الان : زنوبيا - خالد بن الوليد -  
نابليون بونابرت - بتهوفن - طارق بن زياد - هنيبل -  
مدام كوري - كولومبوس - عبد الرحمن الداخل .

دار العالم للملايين

بيروت

حضارية خلافة يعرف منها الفكر الديني والتأمل الميتافيزيقي والتعبير  
الفني باسمرار . اما دراسته عن « معجزة ظهور العذراء وتصفية  
آثار العدوان » ( ص ١٥١ - ١٧٩ ) التي سبق ان نشرت في مجلة  
« دراسات عربية » عدد يوليو ١٩٦٨ ، فقد اُسِّمت بالمبالغة والتصوير  
المهول لهذه الظاهرة التي اخذت صورة نوبة مفاجئة سرعان ما بدأت  
تضمحل وتنتهي وتعود الى حجمها الحقيقي من حيث اهتمام فئات  
معينة بها فقط ، وكان على الكاتب ان يراجع ما كتبه عند نشره كتابه  
حتى لا يحمل الامور اكثر مما تحتل . واما دراسته عن التزييف في  
الفكر المسيحي الغربي المعاصر فهي نقد للندوة التي عقدت في الجامعة  
الامريكية في بيروت حول موضوع « الله والانسان في الفكر المسيحي  
المعاصر » .

\*\*\*

وصلب دراسته من حيث موضوع نقد الفكر الديني فهو الفصل  
الاول من الكتاب عن « الثقافة العلمية ويؤس الفكر الديني » . ولن  
نناقش اهم ما جاء به ولكن نحب ان نذكر نقدا عاما وهاما - ومع هذا  
فلن نقف عنده كثيرا - وهو ان المؤلف لا يراعي في كثير من احكامه او  
تعبيراته الدقة العلمية التي كان ينبغي ان يلتزم بها . مثل قوله « ملكة  
الانسان الخرافية » بل وايضا « ملكاته الخرافية » ( ص ٨٢ ) . فليس  
التفكير الخرافي او الاسطوري « ملكة » من ملكات الانسان ، وكذلك  
ليس التفكير العلمي « ملكة » من ملكاته ، والاهم من هذا وذاك ان  
تصير « الملكات » نفسه ، هذا التعبير الارسطي الذي ظل مسيطرا على  
المعرفة النفسية في العصور الوسطى ، تعبير خاطيء ، وقد رفضه علم  
النفس الحديث ولم يعد يقول به احد من المشتغلين بعلم النفس على  
الاطلاق . ويقول المؤلف ايضا ( ص ١٩ ) « علما بان جيمس لا يعبر عن  
رأيه الشخصي فقط ، وانما يعكس بذلك مزاج حضارة القرن العشرين  
وثقافته » . ولو دقق الكاتب قليلا لعرف ان الفيلسوف الامريكسي  
البرجماتي الشهير وليم جيمس لا يمكن ان نقول عنه انه يعكس مرة  
واحدة ووحده فقط دوننا عن الآخرين « مزاج القرن العشرين وثقافته » ،  
فقد يكون في الحقيقة يعكس جانبا من هذا المزاج او بالاحرى يعكس  
مزاج الرأسمالية « الامريكسي » النامية والانتهازية والمستبشرة بالمستقبل .  
والذي يقول هذا الكلام عن وليم جيمس كيف تأتي له ان يختم كتابه  
بعبارة سارتر ان « الماركسية هي الفلسفة المعاصرة !! »

ومع هذا فسنضرب صفحا عن كثير من مثل هذه التعبيرات  
والاحكام الجزئية الخاطئة وغير الدقيقة في الكتاب والتي تتناقض مع  
بعضها احيانا ومع ما يدعو اليه الكاتب بشكل عام في احيان اخرى ،  
وان كان من واجبا ان نفر للمؤلف الفاضل مثل هذه الاخطاء لانه من  
المشتغلين بالفلسفة ولانه يحاول ان ينقد الآخرين بصراحة ظاهرة .

\*\*\*

ودون ان نقوم بمراجعة لكل ما ورد بهذه الدراسات وتلخيص  
افكارها الرئيسية ثم نقدها وتحليل هذا النقد لنتكشف دلالاته ومضمونه  
لان ذلك لن يزيدنا الا تأكدا مما ذكرناه في النقطة الاولى واتسام هذا  
النقد في معظمه بطابع اليسارية الطفولية . . . دون ان نستفيض في  
هذا ، تلاحظ ان المؤلف لم يستوعب الفكر الذي قرر انه يتبناه ويأخذ  
به ، ولذا فان نقده انبثق من ارضية مثالية مفضاة بواجهة ماركسية ،  
وهذا واضح في الموازة التي اجراها بين نقد انجلز للمادية الميكانيكية  
ونقد الفيلسوف الانكليزي هوبنهد لها وفي غير هذه النقطة ايضا .  
ولو قارنا بين ما حاول ان يفعله المؤلف وبين الفكر التقدمي شبلي  
شميل في اول القرن الذي نادى بالفكر العلمي المادي وقام بنفس عملية  
النقد التي حاولها الكاتب لوجدنا ان شبلي شميل اكثر تقدما ووعيا  
بدوره من صاحب نقد الفكر الديني . وفي ضوء هذا الاتجاه من تراثنا  
الحديث في العشرينات والثلاثينات ينبغي فهم وتقييم ما فعله المؤلف .  
واخيرا فان هذه الكلمة ليست نقضا للنقد ولكنها محاولة  
تصويب له .

عبد الجليل حسن

القاهرة